مجلة التدوين | ISSN: 2170-0419 EISSN: 2602-6953 | المجلد 12 / العـدد: 02(2020)، ص 41- 53

أخلاقيات المحبة وكونية المدينة عند القديس أوغسطين

The ethics of love and the universality of the city at St. Augustine

عفيان محمد

جامعة الدكتور مولاي الطاهر كلية العلوم الإجتماعية والإنسانية

جامعة الدكتور الطاهر مولاي سعيدة

تاريخ الاستلام: 2020/09/11 تاريخ القبول: 2020/10/11 تاريخ النشر: 2020/12/30

ملخص: شروط ميلاد مدينة متناغمة سياسيا وإجتماعيا لا بد أن يتحقق من خلال فكرة المحبة وهي أساس القيم والأخلاقيات في فلسفة الحضارة عند القديس أوغسطين، فمن خلال أخلاقيات المحبة إما يسمو الفرد أو يدنو حيث أن وزن الإنسان من طبيعة حبه، الذي يحدد طبيعة إنتماءه، فكونية الحضارة وعالمية المدينة على النحو الذي أراده القديس أوغسطين لها مشارق فلسفية متنوعة بين مثالية أفلاطونية وتقاطع في مسألة الشر الأخلاقي، ويكملها ترفع أفلوطين عن المادة التي هي سبب الشرور، فكانت الإشكالية القيمية التي نوضحها من خلال أخلاقيات المحبة وكونية المدينة، فكيف نؤسس لتوازن داخل المدينة والحضارة إنطلاقا من التوازن النفسي وطبيعة المحبة؟

كلمات مفتاحية: المدينة، اللاهوت السياسي، الخلاص، الفضيلة، الكونية، الشر الأخلاقي، الغائية، العناية، الثنائية، المحبة.

Abstract: The conditions for the birth of a politically and socially harmonious city must be fulfilled through the idea of love, which is the basis of values and ethics in St. Augustine philosophy of civilization. It is through the ethics of love that the individual either transcends or draws down as the human weight is of the nature of his love, complemented by the act of drifting away of Plotinus from the material that causes evil, the spirit of the political city of St. Augustine shadows are the glories of the Roman Empire and every deterioration of this civilization is the sanctification of idols that can not protect itself, then, how can it protect a city of politics. The value problem that we explain through the ethics of love and the universality of the city, is how to establish a balance within the city and civilization based on the psychological balance and the nature of loves?

Keywords: city, political theology, salvation, virtue, cosmic, moral evil, teleology, care, duality, love

---

المؤلف المرسل: عفيان محمد/ أستاذ محاضر (أ) جامعة سعيدة، **الإيميل:** authorC@mail.com، مخبر تطوير البحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة سعيدة

مقدمة:

روح التدبير السياسي في الصورة المثلى أراد منها القديس أوغسطين أن تنطلق من باب القلب مصدر الرحمة والمحبة، متماشيا مع تحوله نحو المسيحية، ليكون منعطف في التصور السياسي من العقل إلى القلب بحثا عن عالمية المدينة، حيث إكتملت العالمية مع إمبراطورية روما في قوتها وإعلانها المسيحية ديانة رسمية، لكن تدهورت روما وسقطت الدولة الإمبراطورية وهذا ما لم يقبله أوغسطين الذي دافع عن المسيحية المتهمة، وعن الحضارة بالعودة إلى فكرة المحبة لأن القلوب توحد المدينة وليس الآلهة الوثنية، والمحبة تحمي المدينة وليس الحصون والأسوار، وتوازن الذات يكون بمحبة الخير والله وليس الشيطان.

فمثلما تحدث أوغسطين عن لاهوت التاريخ السياسي، منذ بداية الخلق إلى غائيته، جعل فكرة المحبة أساس كل مرحلة، وكل إنقسام داخل المدينة حتى تبلغ مدينة الأبرار السعادة الأبدية، وتنتصر على شرور مدينة الشيطان الأرضية، فكيف نؤسس للمحبة؟ ونؤمن مدينة للمؤمنين قوتها من الله؟، وكونيتها من طبيعة محبة أهلها.

هذا ما خصص له أوغسطين مؤلفه مدينة الله دفاعا عن المسيحية، من أجل تأسيس مدينة عالمية كونية تخلق توازن أخلاقي وإجتماعي، وهو ما نوضحه من خلال حديثنا عن إيطيقا المحبة، وحقيقة المدينة ومستقبلها وكونيتها، وطبيعة الحب والخير عند القديس أوغسطين، وهذه إشكالية جوهرية في القرون الوسطى، فكيف نربط المصير الدنيوي بالخلاص الأخروي؟ وكيف نؤسس للمدينة من باب القلب؟ وهذا ما نحاول الإجابة عليه وتوضيحه من خلال هذه المحاور.

أولا: الإغتراب عن الذات والمدينة

عندما لا نضع المحبة في موضعها الصحيح يصبح قلب الإنسان ليس له بل مسلوب نفسيا، ومغترب عن المدينة السياسية، لأن تقديس الذات فيه إهمال للحقيقة ولمحبة الله، ويترتب عنه تعايش في موطن أرضي على قدر ما نجد فيه الخيرات يطغى الفساد، والحياة فيه حسب الشهوات تجعل الإنسان مغتربا عن المحبة السرمدية وهي محبة الله مصدر الخلاص، وليس محبة النفس مصدر الشرور وهذا ما يترتب عليه مستويين من الإغتراب، الأول مرتبط بالذات والثاني مرهون بالآخر وهو حتمية الإضطهاد وفساد المدينة الأرضية.

1/ الإغتراب عن الذات

بعيدا عن الذات يحضر الطبع البهيمي من النفس ويغيب العقل والقلب، وهذا التصور حاضر في فلسفة القديس أوغسطين، مثلما هو في فلسفة أفلاطون في تقسيم النفوس، إذ أقر أوغسطين في

إعترافاته أنه عاش بعيدا عن ذاته في المانوية وأن "فلسفة الأفلاطونيين المحدثين إقتربت بأوغسطين من أعتاب الكنيسة المسيحية"[1] .

حيث العودة إلى الذات تكون بالترفع عن الماديات، على نحلة أفلوطين في تصوره لنظرية الفيض والصدور، ومثل هذه الأفكار شايعت المسيحية في بواكير إنتشارها خصوصا في الأدب اللاتيني أين تجسد الإغتراب عن الذات، وعن المحبة الحقيقية في رواية الحمار الذهبي للوكيوس أبوليوس، الذي إتبع الملذات وتحول إلى حمار ولما إهتدى إلى العبادة الشرقية عاد إلى طبعه الإنسي وأدرك حقيقة المحبة، وحقيقة الوغوس وهو العقل الذي لا وجود له دون إيمان، "فرواية لوكيوس أبوليوس أوحت للقديس أوغسطين بكتابة إعترافاته ومدينة الله في الدفاع عن المسيحية"[2].

ومثل هذه الحياة التي عايشها آبوليوس وإغترب فيها عن الذات وإنسلخ عن العقل والحقيقة، عاد إليها بعدما أدرك أن المحبة الحقيقية للآلهة الشرقية، الفكرة نفسها إستلهمت القديس أوغسطين الذي سعى إلى محبة الحق ونكران الذات، خصوصا وأنه شب على المانوية وإغترف من ملذات الجسد ما جعله يعيش في العبثية، التي تخضع لحتمية الفساد وليس فقط الإغتراب الذاتي، لأن حياة الملذات ظرفية زمنية وليست أبدية، بل حتى المدينة الغير عادلة لا تعرف الخلود، وتعيش الفوضى وتشهد الإنحطاط، لأن أهلها أحبوا الشيطان، وكل المدن الأرضية هي مدن ظرفية، أما المدينة السماوية هي مدينة خالدة تجمعها وتخلصها محبة الله، أما الشر هو نكران للرب وتقديس للذات والنفس التي هي مصدر لكل شر "لأن مصدر الشر الأخلاقي يقوم على أساس إتباع الشهوات عند الإنسان"[3].

فإتباع الشهوات لا يخدم لا الفرد ولا المدينة السياسية، لأن تقديس الشيطان فيه إبتعاد عن العقل، كون الرغبة مصدر فساد أخلاقي وفوضى سياسية، لذلك كانت المحبة هي خلاص الفرد ومحبة الله خلاص المدينة السياسية، ولولا أن الإمبراطورية الرومانية أسرفت في الماديات ما عرفت الإنحطاط، وتجاوزت الهزال السياسي والتدهور من خلال العودة إلى الذات، ويكون هذا بالتعقل الذي يعقب الإيمان المسيحي حيث الإنسان "إن لم يؤمن لا يتعقل وهذه التجربة وعاها القديس أوغسطين ومارسها القديس أنسلم "[4].

لأن التعقل هو الإهتداء ويكون هذا برعاية الكنيسة مصدر الحقيقة والكمال ومصدر المحبة، وهذه هي السمة الطاغية في فلسفة ولاهوت القرون الوسطى المسيحية، التي عرفت إنعطاف من اللوغوس اليوناني إلى المصدر اللاهوتي للمعرفة، فنجد الإيمان يسبق التعقل، وكل تعقل يرفض الإيمان يجعل الفرد يعيش إغترابا في القيم والحقيقة "فليس الإيمان ينفر من العقل ما دام العقل لا يوجد إلا في الإيمان"[5].

والحقيقة والذات لا توجد بعيدا عن محبة الله، وعلى نهج المحبة أسس القديس أوغسطين لاهوته السياسي، وتفسيره لصيرورة التاريخ حتى يوم الخلاص أين يصبح كل معلوم من أحب الله وكل مجهول من أحب الذات، ومستوى آخر للإغتراب يتجلى في الجانب السياسي، وهو ما نوضحه في الإغتراب والهوية عند القديس أوغسطين من خلال الندينة السياسية.

2/ الاغتراب عن المدينة

الهوية في فلسفة أوغسطين السياسية مردها إلى الإيمان المسيحي، كونه السبيل الوحيد لبناء حضارة، تربط التقدم السياسي العالمي بالسعادة الأبدية وهذا من خلال خط سير الله في العالم الذي يجب أن تحاكيه المدينة، حتى لا يقع الأفراد في الاغتراب الوثني، ومعنى الاغتراب يتجسد حسب طبيعة الهوية والانتماء، إما إلى المدينة السماوية أو المدينة الأرضية الآثمة و هذا يكون بمعنيين:

أما المعنى الأول للاغتراب، هو اغتراب أهل المدينة السماوية من المؤمنين بسبب اضطهادات المدينة الأرضية المتقدمة ماديا و حضاريا، لأن إنشغال شعبها الوحيد هو التقدم الإقتصادي وهي مدينة حربية بإمتياز، تنتصر مؤقتا على المدينة السماوية.

أما المعنى الثاني للاغتراب يكون داخل مدينة الشيطان الأرضية التي يعيش شعبها في الضلال و الفساد إضافة إلى شقاء أهلها الأبدي يوم الدينونة الأخيرة أين يكون الإنتصار النهائي لمدينة السماء ويعرف التاريخ كماله وغائيته.

3/ اغتراب مدينة الله بالظلم

القوة تتواجد في مدينة الشيطان الزمنية، التي تسيطر و تتغلب على المدينة السماوية إلى غاية نزول المخلص لينصر المؤمنين، لذلك يعايش أهل المدينة السماوية الاغتراب من خلال الاضطهاد السياسي، حيث يعتبر القديس أوغسطين في الكتاب الثامن عشر من مدينة الله أن " رئيس المدينة الآثمة يثير عبيده ضد مدينة الله الغريبة في هذا الكون "[6].

و هذا راجع إلى طبيعة اهتمام المدينة الأرضية بالماديات، مما يمكنها من السيطرة على المدينة السماوية التي تستفيد من خيرات هذه الأخيرة من أجل التعايش و الدفاع عن المسيحية، ريثما يبلغ مسار التاريخ كماله وتنتصر مدينة السماء، لكن كما يذكر أوغسطين " لكل من أراد أن يحيا مسيحي فإنه يعايش الاضطهاد "[7]، و الصبر على اضطهاد المدينة الشيطانية، أفضل من العيش مع أهلها على محبة الذات التي حتميتها شقاء أبدي، ومقابل العيش على أمل الخلاص لابد لكل مؤمن من المدينة السماوية أن ينظر إلى خيرات الغد التي وعد بها المسيح، وهذا بالصبر على الاستلاب لأن أهل المدينة السماوية كلما زهدوا وتعففوا كلما اقتربوا من الخلاص لأن وعد الله حق، والعيش على المحبة التي هي روح الجماعة في مجتمع المؤمنين خير من التجمع حول الأشياء الممقوتة التي هي من الأوهام الحضارية

المساهمة في التدهور، والحياة حسب الملائكة الأخيار هي ثمرة الألم وهذا ما يوضحه أوغسطين حيث يعتبر "من يريدون أن يحيوا حياة التقوى في المسيح نجدهم يتألمون من أولئك الأشرار الذين لا يسمحون بأن يصل إليهم الحب "[8]، لكن دوام البؤس أمر مستحيل أمام الإيمان بالخلاص الروحي يوم الدينونة الأخيرة، لتتحقق الحياة الرغيدة لأهل المدينة السماوية التي كونيتها من تعفف أهلها وترفعهم عن الماديات.

4/ اغتراب مدينة الشيطان بالضلال

إغتراب أهل المدينة السماوية ظرفي نتيجة حروب المدينة الشيطانية التي تعيش الشقاء الأبدي، لأنها إستبدلت الدنيوي بالأخروي، وهذا كان حال كل المدن الأرضية السابقة سواءا إمبراطورية روما أو قبلها، وتعيش غياب العدالة و تفكك القيم في الحياة الدنيوية، كما يقول القديس أوغسطين في الكتاب التاسع عشر من مدينة الله "مدينة الكفرة لا تعرف العدالة الحقيقية، و بنوع عام هي ترفض الطاعة لله التي تحافظ بها على الإيمان المستقيم"[9]، ورفض الطاعة لله ينعكس بالفوضى السياسية داخل المدينة التي أهملت السلام، وقدمت الشيطان والذات على المحبة الإلهية، لذلك لا تعرف مثل هذه المدن الاستقرار، لأنها تنتهي إلى حتمية الفساد، والانحطاط وعدم الإستقرار صفة جوهرية ملازمة لكل مدينة أرضية سواء كانت إمبراطورية روما أو غيرها من الإمبراطوريات الوثنية السابقة.

لأن كل مدينة تلاقي نتيجة إختيار أهلها، فالشقاء الأبدي لأهل المدينة الأرضية هو نتيجة الاغتراب عن الله، فيذكر القديس بولس في رسالته إلى أهل روما جزاء الأعمال الخيرة والشريرة زمن الخلاص قائلا: "في دينونة الله العادلة سيجازي من خلالها كل واحد على أعماله"[10]، و هذا الجزاء هو نتيجة الشر في الإرادة الإنسانية التي لم تتجاوز الخطيئة، ولا تعيش حسب الحق الإلهي، بل تخدم قوة المدينة الأرضية الذات الفانية و تقدس الشيطان وتنكر دور الكنيسة التي تجعل الأشياء كلها موجهة لخدمة الرب، و الخلاص الأخروي الذي يجعلنا نبحث عن معنى المدينة وحقيقتها، فأين يكمن المعنى الحقيق للمدينة عند القديس أوغسطين؟.

ثالثا: المدينة و حقيقتها عند أوغسطين

تصور وبناء نموذج للمدينة وللحضارة يتميز ببعد روحي خالص عند القديس أوغسطين، تجاوز فيه الميتوس و اللوغوس اليوناني، فجعل روح التجمع البشري جوهرها المحبة وليست العمارة المادية " فالشعب يكون أفضل بمقدار ما يتفاهم حول أشياء أفضل، وممقوتا أكثر بمقدار ما يتفاهم حول أشياء ممقوتة أكثر "[11].

و لهذا لابد لنواميس المدينة أن تقوم على أساس المحبة الإلهية الخيرة، و بهذا الشكل تتحقق المواطنة و السعادة الأبدية، لذلك ينجر عن تصور أوغسطين للمدينة صفات في ممثل السلطة، وهذه

الصفات نابعة من تقليد الكنيسة التي تنوب ولها العناية ريثما ينزل المسيح لينشر العدل، مثلما يتوجب على الرعية صفات أساسها محبة الله واحتقار الشيطان، أما كل من يقدس الشيطان فهو من الأعاجم الغريب عن مدينة الله، ولا ينعم بخيراتها الأبدية، وهو خارج عن مسار التاريخ الحقيقي الذي يشهد له الكتاب المقدس، كما يذكر أوغسطين قائلا في مدينة الله،" إننا نسمي مدينة الله التي يشهد لها الكتاب المقدس بما له من سلطة إلهية قلدته إياها العناية الإلهية "[12].

فشروط استمرار هذه المدينة هي نفسها أسباب قيامها، كون المدينة السياسية لا بد أن تقوم على الفضيلة الأخلاقية و قيم التسامح الروحية، فحضارة روما الإمبراطورية عاشت على أوهام الوثنية، فأحرقت و تدهورت في ظرف وجيز لأنها إرتكزت على أصول مادية هشة، جعلت الأفراد يتكالببون على الملذات ويهملون المدينة والعقل والرب، ولو تأسست المدينة الرومانية على المحبة الإلهية لعرفت حقيقتها السرمدية الأبدية لبلوغ السعادة، فيذكر أوغسطين قائلا: "ما أكبر الفرق بين جزاء القديسين الذين يتألمون في سبيل المدينة الإلهية، وما أكرهه جزاء على محبي هذا العالم، مدينة الله أبدية، لا ولادة فيها إذ ليس فيها موت، هناك سعادة .حقيقية لا ينقصها شيء "[13].

ومثل هذا الطرح يزيد المدينة قداسة، و يزيد الرعية ولاءا لأنهم يترقبون المصير الأخروي، وخوف الرعية من السلطة الروحية هو أشد ألما من خوفهم من السلطة الزمنية، وعليه جوهر المدينة السياسية عند أوغسطين قائم على حقيقة القلوب و طبيعة ميلها، فاحتقار الذات يصنع مدينة الرب، واحتقار الله يصنع المدينة الأرضية، فمفهوم المدينة وتقدمها ومصيرها مرهون بفلسفة التاريخ، و القداسة التي تزيد نواميسها قوة وولاء تام للرعية و تفويض كامل للكنيسة.

وعبر أوغسطين عن الإمبراطورية الرومانية بمفهوم المدينة تماشيا مع التقليد اليوناني لمفهوم المدينة الدولة، لكن مدينة أوغسطين السياسية يرعاها الرب، وتسير وفق مشيئته، على غرار مدينة اليونان السياسية التي تحاكي تنظيم الآلهة على كثرتها وتنوع مهامها، فمدينة المؤمنين عند أوغسطين تحاكي عشيرة الملائكة الاخيار، وشرط المواطنة في مدينة السماء الخالدة عند أوغسطين هو الإيمان الذي يضمن انسجام المدينة مثل تناغم اللحن الموسيقي الواحد، وانسجام المدينة لا يتفق مع الوثنية لأنه قائم على فن المحبة، "فالمقصود البرهنة على أن آلهة الوثنيين لا يمكنها أن تخدم الدولة بعكس الإله الحقيقي"[14].

وهذا يعطي المدينة عند أوغسطين بعدا لاهوتي خالص، من خلاله يكون البحث عن الوسيط بين الله والبشر الذي تجلى في دور الكنيسة، وطغت مستقبلا باسمه، حيث أعطت الولاء للحكام بحجة التفويض الإلهي الذي يؤسس للمدينة الحقة "مدينة الله المجيدة والثابتة للمواطن الأبدي" [15]

لذلك ينظر أوغسطين للمدينة انطلاقا من تجاوز أخطاء الرومان، وهذا التجاوز يجد صورته في مسار كنيسة الله الحق التي لا تخذل سائلها على غرار الآلهة الوثنية التي لا تحمي المدينة، ولا تؤمن حتى الحماية لنفسها.

وتميز اوغسطين في تصور المدينة كان اضافة جديدة للفكر السياسي، فإذا كانت المدينة الشرقية تتسم بالطابع الاسطوري الذي يجعلها هبة الآلهة، ويجعل نواميسها مقدسة مثل شريعة حمورابي، فإننا نجد طغيان اللوغوس والعقل و الحرية في المدينة اليونانية التي تحاكي تنوع و ديمقراطية آلهتها، أما فلسفة أوغسطين حول المدينة تربط الوجود الدنيوي بالنهاية الاخروية، و تؤسس للمدينة انطلاقا من القيم الأخلاقية والدين، وهذا التصور يزيد النواميس السياسية قداسة الهية، و يؤمن حماية الرب للمدينة، أما وغياب هذه الحماية داخل روما كان حتمية تصنيفها الأرضي الخارج عن مساره التاريخي الحقيقي، فالمدينة الأوغسطينية تنتهي نهاية دينية مثلما بدأت و تأسيسها يكون على المحبة الإلهية، و ليس على محبة الأشياء الممقوتة، لتكون المحبة هي أصل كل خير وأساس كونية المدينة.

رابعا: المحبة مصدر الخير و أساس المدينة

الأخلاق في فلسفة القديس أوغسطين هدفها تحصيل الفضائل على المستوى الأول، والهدف الثاني إبعاد الشر عن الله، حيث يوضح بأن الشر هو نقص في الموجود البشري الذي يقع في محبة الشيطان ويستبيح الملذات، والله يحرر الأفراد "فالله حاضر في النفس، بل هو الحياة في النفس، هو يحيها حيث ينفخ فيها الفضائل وهي الفضيلة الخالدة الأبدية، فالله مصدر كل شئ وكل خير وإنه خلق الإرادة سيدة نفسها لكنه خلقها أيضا مرتبطة بالخير الأسمى"[16]، والإنسان في بحثه عن إشباع اللذة الجسدية يقع في الشر، حيث يوضح القديس أوغسطين في مؤلفه الاعترافات بأن "مصادر الشر تقوم على الشهوات الثلاث وهي شهوة السلطة وشهوة العين وشهوة الجسد"[17]، وعلى أساس هذه الشهوات تحصل مراتب الشر سواء طبيعي من الكوارث، أم إجتماعي من تفكك وصراع أم أخلاقي في تجاوز الفضائل وإتباع اللذات، فالإنسان بالأخلاق يكون شريك لله، وبالشر يكون شريك للشيطان، وفي مدينة الله يوضح القديس أوغسطين في الكتاب الرابع عشر، "أن جميع الذين يعيشون في اللذة الجسدية أو في الجسد أيا يكن، هم على مثال الأبيقوريون من الفلاسفة وذاك القطيع من البشر لا دخل له في الفلسفة، لا يجدون فرحا إلا في الأفراح الحسية"[18]، والفضائل الأخلاقية لا تتحقق باتباع الأفراح الحسية.

لذلك أساس الأخلاق إتباع مدينة الله وتحقيق الفضائل الأخلاقية لبلوغ القداسة، وضمان التكامل في المعرفة، التي تعزز الإيمان وهو مصدرها، والمحبة أساس الأخلاقيات، فأين يمكن البعد الإيطيقي للمحبة عند عند القديس أوغسطين؟

خامسا: إيطيقا المحبة عند القديس أوغسطين

أصل كل تقارب في أحوال الذات والحضارة راجع بالدرجة الأولى إلى طبيعة المحبة عند القديس أوغسطين، الذي جعل المدينة بقلوب أهلها وليس بالحجارة والحصون المادية، وتقسيمه الثنائي موروث عن التقليد المانوي في تصوره للعالم، حيث تقوم الحضارة على أخلاق المحبة، ويوضح أوغسطين في الكتاب الخامس من مدينة الله حبان بنيا مدينتان حب الذات حتى إحتقار الله بنى المدينة الارضية وحب الله حتى إحتقار الذات بنى مدينة الله، إحداهما تفاخر بذاتها والثانية تفاخر بالله"[19].

والمدينة التي تفاخر بالله تجمعها المحبة والإيمان، لأن الشعب تفاهم حول أشياء غير ممقوتة، وقوة كل مدينة من طبيعة حب أهلها، المدينة الأرضية حبها مادي وقوتها مادية، والمدينة السماوية حبها الله مخلصها وأساس قوتها "المدينة الأرضية بمقدور وقوة وسائلها والمدينة السماوية تقول الله أحبك يا رب قوتي الوحيدة"[20].

ومحبة الله تتطلب من أهل المدينة الأرضية الصبر وترك ملذات الدنيا والتعفف عن الشهوات، وهي كلها قيم تدعوا إليها المسيحية مثلما تدعوا إلى المحبة وأخلاق الإنسان النبيل والتعفف، كون الحياة الأرضية الزمنية لمرحلة مؤقتة، والحياة الآبدية في يوم دينونة الرب العادلة، لذلك القلب المتعالي عن الماديات يرفع صاحبه على غرار الغرائز وإتباع الملذات التي هي سبب الشرور ، وتعاليم المدينة سار عليها آباء الكنيسة سواء القديس أنسلم أو أوغسطين وبولس، لأنها أساس الإنصاف الإلهي وأساس كل علاقة في المحبة الخالصة التي تحرر الإنسان من الإغتراب، لأن التعقل الأخلاقي نابع من القلب، والقلب هو أساس التوزيع عند القديس أوغسطين وهو الفاصل في غائية التاريخ لأن حب الله جوهر الخضوع وتجاوز الشرور لبلوغ أخلاق لا تخدم الرغبات عند الإنسان بل تقترب من التعفف والخير الذي يصمن لنا مدينة عالمية كونية، فعلى أي أساس تقوم كونية المدينة، عند القديس أوغسطين؟

سادسا: كونية المدينة من خلال الأخلاق والعدالة

المستوى الايطيقي للتنظير السياسي عند أوغسطين حول حقيقة المدينة، يقوم على أساس أخلاقي خالص، يجد فيه الفيلسوف مخرجا من مسألة الشر الأخلاقي بما يخدم الفضيلة، مثلما تعيش مدينة السماء على العدالة الحقيقية، بدل غياب العدالة داخل المدينة الأرضية، و هذا ما توضح من خلال البعد الايتيقي للسلطة السياسية وحقيقة العدالة الإجتماعية.

/1 البعد الأخلاقي للسلطة السياسية

جوهر البعد الايتيقي في فلسفة أوغسطين السياسية قائم على تجاوز الشر الأخلاقي الذي هو نقص في الموجود الإنساني، و على أساس قيمتي الخير و الشر تتأسس المدينة الأرضية و المدينة السماوية، لذلك إذا أراد الإنسان تحقيق الخلاص يجب عليه توجيه الإرادة نحو الخير، " و بما أن القدرة في هذه

الحياة تخون إرادتنا فلنعمل على الأقل بمساعدة الله على أن لا ندع الروح فينا تستسلم لهجمات الجسد حتى إذا انهزم الفرد على الخطيئة"[21].

فعناية الرب و الإيمان بخلاصه يحرر الإرادة من الخطيئة ، لتتجاوز الشر لأن المدينة السياسية تكون بأهلها و ليس بالعمارة المادية، "ففضائل المدينة الإلهية تكون بالعيش على محبة الله لبلوغ الخلاص و هذا يكون بالعكوف عن الملذات وإتباع الكنيسة "[22]، كون الكنيسة توجه الأفراد إلى الحقيقة والمعرفة، ريثما يحل زمن الخلاص مع المسيح لينشر العدل، وعليه فمن الضروري العودة إلى الكتاب المقدس لتجاوز أخطاء الوثنيين التي ساهمت في سقوط الإمبراطوريات السابقة على روما، و سقوط روما هو من أخطاء الأفراد التي تقدس الشهوات لأنه كما يذكر القديس أوغسطين في اعترافاته "أن مصادر الشر الأخلاقي تقوم على أساس إتباع الشهوات عند الإنسان"[23].

وإشباع الشهوات يحط من قداسة الإنسان الذي يحتقر الرب ويفقد المعنى الحقيقي للمواطنة المرهونة بقيم أخلاقية و روحية متشبعة بعقيدة مسيحية، تؤمن بنهاية التاريخ الذي ينتصر فيه أهل المدينة السماوية على أشرار المدينة الأرضية.

2/ العدالة السياسية عند القديس أوغسطين

مدينة الكفرة تغيب بداخلها العدالة الحقيقية فهي لا تعطي كل ذي حق حقه، لذلك جوهر المدينة السماوية قائم على أساس العدالة التي تضمن التوازن الاجتماعي، و هذا يعود إلى الطبيعة الروحية لهذه المدينة من خلال إتباعها عناية الرب، فذكر السيد المسيح موصيا "أعطوا، ما لقيصر لقيصر و ما لله لله"[24].

و يترتب عن هذا أن الحق و الواجب يتماشى من خلال الولاء للقيصر المفوض من الكنيسة، وإضافة إلى الوعيد الأخروي بجزاء الأخيار و الأشرار حسب طبيعة الإرادة والميل سواء حققت العدالة أم كانت مضادة لها، مثلما هو حال المدينة الأرضية التي لا تعرف معنى العدالة، وهذا راجع حسب طبيعة ميل هذه المدينة القائمة على خدمة الذات، "لذلك المسيحية لم تكن السبب في ضعف السلطة الرومانية عالميا، وهذا دفع بأوغسطين إلى اعتبار أنه لم تكن عدالة مطلقة في المجتمع الروماني"[25]، الذي لو عرف معنى العدالة ما كان محل ضعف اجتماعي وتدهور سياسي، ينعكس سلبا على مسار الحضارة التي لا تخدم الفضائل الأخلاقية، مما يولد التشاؤم عند الأفراد، و مقابل هذا التشاؤم يجد الأفراد ضالتهم الحقيقية في التبشير بالخلاص عند مجيء المسيح، لينشر العدل و ينصر الضعفاء و يحررهم من الطغيان، وهذا يجعل "تحقق العدل يكون بإخضاع الأرواح والأجساد إلى الرب "[26] و يعكس هذا الطبيعة

الروحية للمسيحية التي تجسدت من خلال الفلسفة المسيحية التي تبرر العدالة ببعد ديني قائم على المحبة والتحرر من الشهوات التي تحجب الحكمة على الطبع الإنسي.

لذلك ترتبط العدالة بالسلطة السياسية من خلال الجزاء النهائي لكل مدينة حسب طبيعتها الخيرة أم الشريرة، وهذا من خلال اعتبار أن مملكة المسيح هي راعي العدالة وريثما يأتي زمانها تكون مرجعية العدالة بين الأفراد الإيمان بوعد العدالة والسير مع ممثل الحق ريثما يتحقق وعد الرب للأبرار، وتتجسد كونية المدينة حيث يكتمل الدنيوي بالأخروي، فكيف تكون كونية المدينة من خلال فكرة الخلاص الديني؟

7/ كونية المدينة والخلاص الديني

تشهد نهاية الأزمنة مجيء المسيح الذي يرفع الشرور والغبن عن المدينة السماوية، ليبلغ التاريخ غائيته الموجود لأجلها في صورة تكتمل فيها العدالة مع السعادة الأبدية لتطيب الحياة للجميع، "وخصوصية الكنيسة لا خلاص خارج عنها، وهذا ما يلزم بعدم إبداء أية معارضة اتجاهها، إذ تشارك في الطابع التقديس لمؤسسها فهي وحدها التي تسمح بولوج الخلاص بفضل النعمة التي تبشر بها"[27].

فالمسيحية هي جوهر النعمة وأساس النهضة الحضارية، التي أمل في تحققها أوغسطين في مؤلفه مدينة الله مبعدا عنها كل أسباب الضعف واللعنة، جاعلا اللعنة تكون بإتباع الشرور والحصون والأشياء المدنسة على حساب القداسة الإلهية، التي حتميتها خلود أبدي مع شقاء للأشرار، وفي إنتظار زمن الخلاص تتوسط الكنيسة لإدارة شؤون البشر "فالكنيسة تتحدد بدءا باللاهوت وتدرك على أساس أنها بنية توسط"[28].

و هذا التوسط تجسد لاحقا في أوغسطينية سياسية جعلت للسلطة قداسة وبهذا أحكمت الدولة والكنيسة السيطرة على المعرفة وتوجيه السلوك، بحجة أنها مرشدة السلوك، ريثما يحل المخلص وبالإيمان بالخلاص تكون سعادة الأبرار "وهي آخر ما يريد العلم الإلهي أن يسعد في ملكوت الله كل الأبرار، وفيه تتحقق وعود الله "[29].

والإيمان بالخلاص هو أساس الصبر وذريعة لإقناع وإخضاع أهل المدينة السماوية على الصبر لمختلف الاضطهادات من المدينة الشيطانية الأرضية، لأن هذا الإيمان يهبهم قوة روحية نابعة من صبر كل من أحب الله وأدرك حقيقة وعوده، لأن الله لا يستحيل عليه شيء، فكان الولاء مزدوج لله وللقيصر طيلة القرون الوسطى المسيحية، وهذا ما ألحق بالفلسفة سباتا دوغمائي يقيد المبكية وحرية الفكر.

أما البحث عن إعادة أمجاد روما وسط الخراب الذي لحق بها هو من الأوهام التي يجب تجاوزها من خلال الإيمان بأن النهضة الحضارية تكون عندما تسير الدولة على خطى الخلاص التاريخية إلى غاية نهاية الأزمنة، و تعود فكرة الإيمان بالخلاص إلى الموروث الإشراقي من خلال الفلسفة الأفلاطونية المحدثة

التي تأثر بها القديس أوغسطين و هذا بالدعوة إلى محبة الله بدل المادة والأوثان التي يقدسها أهل المدينة الأرضية،" فتراث الأفلاطونية المحدثة الذي تحدث عن التعويض السماوي جعل الأفراد يقبلون تعاسة الدنيا مقابل سعادة الآخرة ووعودها و هذا ما استخدمته السلطة أيام الإمبراطور الروماني قسطنطين زريق "[30]، الذي أعلن أن المسيحية هي الديانة الرسمية داخل الإمبراطورية الرومانية.

ومقابل الظفر بالغنيمة الأبدية زمن الخلاص يسلم الأفراد أمرهم لخدمة السلطة السياسية، و يزهدون أملا في يوم الدينونة الأخيرة لتفيض عليهم الخيرات وتغمرهم النعمة الإلهية "و كان أوغسطين نفسه يدين بهذا الولاء للأفلاطونية الجديدة و يرجع القضاء والقدر إلى الإرادة الربانية"[31]، التي من شأنها أن تصل بالصابرين على محبة الرب مقابل الألم إلى الحياة الرغيدة، التي تتجاوز الشرور وتعمل من أجل الخلاص تماشيا مع مخطط العناية الإلهية التي ترشد الناس إلى المعرفة الحقيقية، وإلى كمال الدولة السياسية المقدسة ليلاقي أفرادها المسيح و ينصرهم على ظلم المدينة الأرضية الشيطانية، لذلك فمن شروط النهضة السياسية العمل من أجل الخلاص لتحقيق المواطنة، وهذا بالمحبة وبالبحث عن كونية الرب الخالدة و المجيدة.

خاتمة:

وخلاصة ما تقدم من كلام حول إيطيقا المحبة عند القديس أوغسطين، نجده حاول تجاوز الهزال السياسي الذي لحق بالإمبراطورية الرومانية، فكان حجاجه دفاعي عن المسيحية، مادته تجميع الأفراد بالمحبة، بعدما فشلت القوة الرومانية المادية على جمعهم، فاختار القديس أوغسطين طريق المحبة الروحي لبلوغ المدينة الأبدية الخالدة، وبرر الضعف الحضاري بطبيعة الميل، فالأشياء الدنيا تدنوا بصاحبها وبالمدينة، ورغم أنها أساس للقوة لكنها قوة ظرفية، أما المدينة التي تؤسس على محبة الله هي أساس الحضارة والسعادة الأبدية.

وطبعا لم يخرج أوغسطين عن غيره من أباء الكنيسة في ربطه الدنيوي بالأخروي ودعوته لمحبة لله هي أساس، صبر الضعفاء على طغيان الأقوياء.

وأعطى أوغسطين تبريرا أخلاقيا للحضارة والتاريخ، فحديثه عن كونية المدينة إنطلاقا من القلب وليس من المواطنة كان إضافة جديدة للفكر السياسي وحجة لتقوية سلطة الكنيسة، وهذا ما خدم آباء الكنيسة والسلطة طوال فترة القرون الوسطى الأروبية، إذا تبرير أوغسطين لصبر أهل المدينة السماوية جعلهم يخضعون لطغيان القيصر والقسيس على حد سواء، بل حتى الحقيقة التي خالفت الكنيسة معرفيا تم التعجيل بأفولها، فكانت فكرة المحبة ههي روح المجتمع لكن ذهبت معها روح الحرية داخل المدينة، وذا ما تجسد طوال طغيان الكنيسة رغم أن فكرة كونية المدينة أساس فلسفة أوغسطين

السياسية، إلا ان هذا تحول إلى طغيان مقنن وثيولوجيا، أحقت البأس الذي عبر عنه فكتور هوغو بالبؤساء أمام حاجة شعب إلى رغيف، لا تغذيه المحبة بل يبحث عن الحرية وهذا ما ممهد لقطيعة حولت فكرة المحبة من الله إلى محبة العقل، مثلما كانت في اليونان، ومهدت لثورات تنويرية تجعل لا سلطة تعلو على سلطة العقل، وتجعل العقل والإيمان صنوان لا يلتقيان، وهذا مما مهد للائكية، وكان أساس الثورة الفرنسية لإشباع حاجة الإنسان المتعطش للإيخاء والحرية، لا يريد لا ربا ولا ملكا.

فالمحبة عند القديس أوغسطين إن قدمت الإيمان على العقل فإنها في عصر النهضة والأنوار، تقدم العقل على الإيمان، وكل من وضعهما في نسق واحد، كان شأنه من الدور الديكارتي في تبرير مصدر الإيماني والعقل.

قائمة الإحالات:

إبراهيم زكرياء، إعترافات القديس أوغسطين، مطابع الهيئة المصرية للكتاب،مصر، ط1، 1994، ص11.

1- **لوكيوس أبوليوس، الحمار الذهبي، تر: أبو العيد دودو، مطابع الهيئة المصرية للكتاب،مصر، ط3، 1994، ص05.**

2- **القديس أوغسطين ، إعترافات، تعريب الخوار أسقف يوحنا الحلو، دار دمشق، بيروت، ط 03، 1986، ص52.**

3- **عبد الرحمن بدوي، فلسفة العصور الوسطى، دار القلم، بيروت، ط3، 1979، ص 12.**

4- **القديس أوغسطين، الإعترافات ص 52**

5- **القديس أوغسطين، مدينة الله، الكتاب الثامن عشر تعريب الخوار أسقف يوحنا الحلو، دار دمشق، بيروت، ط 1، 2002، ص90.**

6- **المصدر نفسه، ص 90.**

7- **المصدر نفسه ، ص91 .**

8- **المصدر نفسه، ص 162.**

9- **رسالة بولس إلى أهل روما الإصحاح الثاني.**

10- **شاتليه فرنسوا و آخرون، معجم المؤلفات السياسية، لبنان :المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط1، 1997، ص114**

11- **القديس أوغسطين، مدينة الله، الكتاب الأول. ص15**

12- **المصدر نفسه، ص 250.**

13- فرنسوا شاتليه وآخرون : معجم المؤلفات السياسية ،ص112
14- المرجع نفسه، ص 112.
15- علي زيعور، أوغسطينوس مع مقدمات في العقيدة المسيحية والفلسفة الوسيطية، دار إقرأ، بيروت، ط1، 1983، ص 158.
16- القديس أوغسطين، الإعترافات، ص 52.
17- القديس أوغسطين، مدينة الله، الكتاب الخامس، ص 158.
18- المصدر السابق، الكتاب الخامس، ص 212.
19- المصدر نفسه، ص 211.
20- القديس أوغسطين، مدينة الله، الكتاب التاسع عشر، ص117
21- زيعور علي، أوغسطينوس مع مقدمات في العقيدة المسيحية، ص158
22- القديس أوغسطين، الاعترافات ،ص52
23- انجيل متى، الإصحاح، ص22
24- ستيفن ديلو، التفكير السياسي و النظرية السياسية و المجتمع المدني، تر: ربيع وهبة، مكتبة الإسكندرية، القاهرة، دط، 2000 ص121
25- المصدر نفسه ، ص 12.
26- ميشال مسلان، علم الأديان مساهمة في التأسيس، تر :عز الدين عناية، المركز الثقافي العربي، الإمارات، ط1، 2009، ص.132
27- المرجع نفسه، ص 133.
28- القديس أوغسطين، مدينة الله، الكتاب العشرون، ص325
29- الألوسي محي الدين حسام، التطور و النسبية في الأخلاق، دار الطليعة لبنان، ط1، 1989 ص77 .
30- المرجع نفسه، ص 78.